

اليوم رقم 10

بسم الله الرحمن الرحيم

سنبدأ اليوم مع سور المرحلة السابعة / مرحلة التعذيب والهجرة.

الجو العام في هذه المرحلة يظهر تعرض المستضعفون من المسلمين للتعذيب الجسدي، وصل إلى الحرق بالنار لكي ترغمهم قريش على الردة والعودة لطاعة أسيادهم. وهذا يمكن فهم دوافعه، فقريش تعتمد كلياً على العبيد والموالي في القيام بالأعمال الخدمية، ولو آمنوا فستتعطل المصالح وتنشل الحياة اليومية في مكة. ولهذا تجرأت قريش على خرق القانون الإلهي المحترم طوال قرون والذي ينص على أن مكة بلد آمن لا يضام ساكنه ولا يؤذى. وهذا القانون هو الذي جنب الرسول محمد وكل المسلمين الذين ينتسبون لقريش بالنسب من الأذى الجسدي. وكأن بعض رجل قريش تجرأ على تعذيب المستضعفين كونهم أقل شأنًا في الإنسانية حسب قانون الطبقية الاجتماعية المعمول فيها في ذلك المجتمع. وكان الله لن يغضب على قريش لو تعرض عبد أو مولى للغضب، بخلاف لو تعرض لذلك قرشي مسلم.

وقد نزل في هذه المرحلة ثمان سور هي آخر السور التي نزلت في مكة ليتكمل العدد إلى 89 سورة مكية.

وسور هذه المرحلة، هي: الأنعام، العنكبوت، البروج، المسد، النحل، القصص، الرعد، والحج.

وسنحدث اليوم عن أربع من هذه السور، هي: الأنعام، العنكبوت، البروج، والمسد.

وبالبدية مع سورة الأنعام التي تفتتح بحمد الله الخالق العليم، والتعجب من كفر قريش: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ {1} هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ {2} وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ {3}.

(الآيات: 4-73) تخاطب قريش على العموم، وتؤكد أنهم لن يؤمنوا، وترد على اتهاماتهم وتحث الرسول على الصبر على الأذى.

(الآيتان: 4-9) قريش تعرض عن سماع آيات القرآن، ولن تؤمن: وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ {4} فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِئُونَ {5} أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّانُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ {6} وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ {7} وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ {8} وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ {9}.

(الآيات: 4-5) من لا يؤمن عند سماع الدعوة لن يؤمن بعد ذلك أبداً، وقريش تسخر من الرسول ولا تستمع له.

(الآية: 6) قريش لو أرادت الإيمان فستعتبر لما حدث لأمم قبلها أهلك بكفرها. (قرن هنا تعني أمة).

(الآيات: 7-10) تشير لما استمرت قريش بترديده على أسماع محمد والمتمثل بطلب معجزات وإرسال ملائكة لهم. وتقول الآيات أن قريش ليست جادة في طلباتها، بل سخرية، ومحاولة لتعجيز محمد لتبرر تكذيبها. ولو أنزل عليهم كتاب في قرطاس ولمسوه بأيديهم أو رأوا الملائكة فلن يؤمنوا. ولأن الملائكة لا أجساد لها فلو أنزلت عليهم فلا بد أن تتشكل بهيئة حسية، وبالتالي فستبدوا كبشر تلبس لباس وبشر وإن لم تكن كذلك.

الآية 7 دليل على أن القرآن لم يكتب في مكة.

(الآيات: 11-18) دعوة عقلانية لقريش على لسان محمد: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ {11} قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {12} وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {13} قُلْ أَعِيزَ اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {14} قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ {15} مَن يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ {16} وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {17} وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ {18}.

(الآية: 19) القرآن وحده أداة الدعوة: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَسْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ {19}.

الآية دليل على أن محمد رسول لكل من بلغه القرآن، بغض النظر عن المكان والزمان واللون والجنس واللغة. (محمد رسول للناس كافة، كما تقول سورة سبأ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 28).

(الآية: 20) تؤكد أن هناك من دخل الإسلام من أهل الكتاب (من يثرب)، بينما خسرت قريش ببائنها على الكفر ولن تؤمن: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {20}.

(الآية: 21) تكرر تحذير قريش التي استمرت تلفق نصوصاً وتنسبها للقرآن، وتسمعها للناس الذين يأتون لمكة لتغييرهم من لقاء محمد: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {21}.

(الآيات: 22-24) تصور حال قريش يوم القيامة، عندما يتأكد لديهم أن أوثانهم لن تنفعهم، وتظهرهم الآيات وكأنهم يحاولون إنكار كفرهم: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شِرْكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرْعُمُونَ {22} ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتْنُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ {23} انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {24}.

تعود الآيتان: 25-26: لتأكيد ما ذكرت الآيتان: 4-5 من أن قريش لن تؤمن. وللحديث عن محاولات صد قريش لغيرها من لقاء الرسول أو الإيمان بالإسلام الذي ذكرته الآية 21: وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {25} وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {26}.

قريش لا تصغي، ولو رأوا كل المعجزات فلن يؤمنوا. ويدخلون في جدال مع الرسول لعلمهم يحرجونهم ويصدون غيرهم من إتباعه. وهم يقومون بكل ما يستطيعون لصد غيرهم من لقاء الرسول أو الإيمان.

(الآيات: 27-32) ستندم قريش يوم القيامة، ولو ردوا للدنيا فسيعودون لكفرهم: وَلَوْ تَرَى إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {27} بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {28} وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ {29} وَلَوْ تَرَى إِذْ وُفِّقُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ {30} قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً

قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ {31}
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {32}.

الساعة تأتي بغتة بالنسبة لكل فرد، حيث أنه بمجرد موته تتوقف الذاكرة عن التسجيل وإذا ما قامت القيامة سيظن أنه للتو مات. وتكون الساعة بالنسبة له قد جاءت بغتة.

ثم تتوجه السورة بالحديث لمحمد: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ {33} وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ {34} وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَآيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ {35} إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ {36} وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {37}.

لقد كان محمد يحزن كثيراً لما يسمع من سخرية قريش بالقرآن وهو يعلم أنه حق من الله، ويتأذى مما يواجهه من جور وتعسف وسخرية قريش. والآيات تؤكد له أن ما يلاقيه قد سبقه إليه كل الرسل قبله، وأن الله وعد الرسول ومن آمن بالنصر والظهور في النهاية. (سبق وتحدثنا كيف يكون النصر دون أن يتدخل الله جل وعلى بتغيير ما يجري على الأرض).

وتظهر الآيات – مثل آيات في سور أخرى – أن الرسول كان يتمنى لو أعطيت قريش معجزة، كونهم يرددون على مسامعه أنهم لو رأوا معجزة فسيؤمنوا، وترشده الآيات أنهم لن يؤمنوا لو رأوا كل المعجزات، ومطالبهم للتعجيز وليسوا جادين. وتأمّر الآيات محمد بطرد مثل هذه الأفكار، فمن يؤمن هو من يسمح لعقله بالتفكير بما يسمع ويفتح ذهنه ليستمع له. ثم تؤكد الآيات أن الله لن يري قريش أي معجزة (آية).

(الآية: 38) كل مخلوقات الله الحية على الأرض أمم مثل البشر وسيبعثون: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ {38}.

هذه الآية تحتم على البشر أن يتعاملوا مع المخلوقات الأخرى بكل إنسانية ولا يجوز التعامل معها بخلاف ذلك.

(الآية: 39) كناية لتصوير الكفار بشكل حسي: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {39}.

الآية تقول من يشأ الله يضلله ومن يشأ يهده. وقد سبق وبيننا أن المقصود ليس تقرير الله المسبق لبعض الناس بالكفر والبعض بالهداية، ولكنه يعني أن خيار الإيمان والكفر شخصي بحت، لكنه لا يمكن أن يتم لو لم يرده الله، من باب أن كل ما يجري في الكون سمح له الله جل شأنه بأن يتم ولو أراد لما تم.

(الآيتان: 40-41) تخاطب قريش بعقلانية: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {40} بَلْ إِلَٰهَهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ {41}.

(الآيات: 42-49) استمرار للدعوة العقلانية لقريش والآيات تخاطب محمد: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ {42} فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {43} فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ {44} فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {45} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ {46} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ {47} وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {48} وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ {49}.

(الآيتان: 50-51) تخاطب محمد للرد على قريش: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ {50} وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {51} وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ {52}.

الآية: 50 كل الرسل السابقين قالوا لرسولهم مثل ما أمر محمد هنا بقوله لقريش: محمد لا يملك أن يأتي بمعجزة من عنده، ولا يعلم الغيب، ولا يزيد عن كونه رسول يتبع ما يوحى إليه (القرآن الذي لم يوح له غيره).

والآية: 51 تؤكد أن الرسول لم يتلق سوى القرآن وهو وحده وسيلة الدعوة "وأُنذر به".

(الآيات: 52-54) تسن قوانين هامة جدا لضمان أن كرامة المسلم مصانة: وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ {52} وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ {53} وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {54}.

تحذر الرسول من طرد المؤمنين (كونهم في الغالب موالي وعبيد)، وهذا ما قالت أمم سابقة لرسولها، كما ورد عن نوح: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ} الشعراء 114.

والآيات تسن قانوناً هاماً جداً في حقوق المسلم في دولة الإسلام: لا يجوز طرد مسلم وهو ما يعني احترام شخصه. كون الدخول في الإسلام يعني ضمان الكرامة. والرسول حذرت الآية من أنه لو طرد مسلماً فهو من الظالمين. والظالمون مصيرهم النار. فكيف بمن هو أقل من رسول الله؟

وتستمر الآيات لتسن قانوناً آخر يتمثل بوجوب احترام شخص المسلم بغض النظر عن تعليمه أو ماله أو جنسه أو لغته أو ... أو

والسؤال هنا: هل قام محمد بطرد أحد؟

لو فعل فهو بشر احتاج لتوجيه من ربه.

وسؤال آخر حول الآية 54: وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {54}.

والسؤال هو: ما الذي فعله بعض المسلمين من سوء؟

لقد كتبت في "أحسن القصص" أن الآيات ربما تشير إلى بعض مسلمة قريش الذين استمروا يوالون المشركين، والذين دخلوا في مشاحنات مع بعض المستضعفين المسلمين من الموالي والعبيد، وأن الرسول قد قام بطردهم. فقدم عليه بعضهم نادماً على ما بدر منه، فجاءت الآية التالية ترشد الرسول للتصرف الذي يجب عليه أن يتصرفه حيال هذا المسلم التائب وكل من

يَحْذُوا حَذْوَهُ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَحْسَنَ اسْتِقْبَالَهِ وَيَشْجِعَهُ عَلَى التَّوْبَةِ، وَيُطْمَئِنُّهُ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {54}.

لكن هناك احتمال أن بعض مسلمة قريش (الذين يوالون المشركين) هم من طلب من الرسول طرد المستضعفين (وقد سبق ودخلوا معهم في مشاحنات ونزاع وسيستمر الخلاف بين الطرفين). وهذا الاحتمال هو الأرجح عندي الآن.

(الآيات: 55-65) دعوة عقلانية لقريش: وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ {55} قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ {56} قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ {57} قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ {58} وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ {59} وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {60} وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ {61} ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ {62} قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ {63} قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ {64} قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ {65}.

الآية 59 دليل على أن الرسول لا يعلم الغيب.

الآية: 60 تعطينا أقرب صورة للموت وهي النوم، حيث تتوقف الذاكرة عن التسجيل، ونغيب عن الواقع.

الآية 61 تصور تسجيل الأعمال وكأن من يقوم بها حفظة (مخلوقات) وليس آلية داخل الروح كما هي بالفعل، وذلك لتقريبها للذهن. كم تصور خروج الروح من الجسد وكأن من يقوم بها (مخلوقات) وليس آلية كما هي.

الآية: 65 التفرق والتشردم عذاب. ونحن نفهم ذلك الآن تماما لأننا نعيشه.

(الآيتان: 66-67) القرآن وحده وسيلة الدعوة: وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَأَسْتَعِينَكُمْ بِوَكِيلٍ {66} لَّكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ {67}.

والرسول ليس مسئولاً عن هداية البشر، وكل ما عليه هو تبليغ القرآن فقط. وهذا ما يجب أن يلتزم به كل دعاة الإسلام. لكن ما يحدث اليوم هو الاعتماد على الوعظ القصصي والترغيب والترهيب الخطابي، وهذا أسلوب مسيحي يعتمد المبتشرون المسيحيون الذين يفتقدون للحقائق المقنعة في دينهم فيعتمدون أسلوب الخطابة ليعوضوا بسحر البيان نقص البرهان. ويمكن استخلاص قانون قرآني هنا يقول: الدعوة للإسلام تكون بتلاوة القرآن، أو تيسير القرآن لغير المسلم بلغته ويمنع استخدام الأساليب الحالية، لأنه إن كان محمد لم يدع إلا بالقرآن فكيف يسمح لغيره بالوعظ بكلامه هو. والقرآن كرر ما ورد في هذه الآية كثيراً.

(الآيات: 68-70) تستمر بفرض القوانين الدعوية والتعامل مع المخالفين: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {68} وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {69} وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ {70}.

القانون الأول: مخالطة الناس بغض النظر عن المعتقد هي الأصل، لكن لا يجوز مشاركة المستهزئين بالقرآن المجلس " وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ".

القانون الثاني: في حال استمر أناس على السخرية من القرآن فلا يجوز مخالطتهم " وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ".

القانون الثالث: على كل المسلمين الدعوة لله، دون أن ينصبوا أنفسهم هداة لدين الله والاكتفاء بما أمر به الرسول من تبليغ القرآن وبس " وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ " (لا للوعظ القصصي).

الآية 70 تكرر التأكيد على أن الدعوة تكون بتبليغ القرآن فقط " وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ".

وتتوجه السورة على لسان محمد للمؤمنين للرد على قريش: قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَظِرْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {71} وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ {72} وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ {73}.

الآية: 72 لعلها المرة الأولى التي تأمر الآيات المسلمين بإقامة الصلاة بعد أن فرضت لها أوقات محددة لأدائها.

الآية 73 ينفخ في الصور تصوير لقيام كون القيامة.

ثم تتوجه السورة في (الآيات: 74-87) لتتحدث عن إبراهيم بتوسع وتذكر بعض الرسل السابقين معروفين عند بني إسرائيل: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ {74} وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ {75} فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ {76} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ {77} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ {78} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {79} وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ {80} وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُكُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {81} الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ {82} وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {83} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {84} وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ {85} وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ {86} وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {87}.

(الآيات: 75-79) ترينا صورة لرحلة العقل التي تنتهي بالوصول للحق. دليل على أن العقل لو سمح له بالتفكير الحر فسيوصل صاحبه للحق. وأن الشك هو بداية اليقين. وهذا يخالف زعم عبدة النصوص وأتباع السلف الذين يحرمون أعمال العقل ويصورونه عدواً للدين. وهو عدو لدينهم الموروث والمختلق، أما دين الله الحق فالله جل شأنه يشهد ويؤكد أن العقل هو الطريق الذي يؤدي للدين. العقل دليل للدين، ولا يمكن للعقل أن يخالف دين الله الحق، وكل ما يخالف العقل فهو ابتداع بشري.

(الآيات: 80-82) في كل وقت وزمان أتباع الموروث يخوفون كل من يعارضهم بالويل والثبور، والآيات ترد عليهم: وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ {80} وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {81} الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ {82}.

(الآيات: 83-87) تذكر بعض الرسل الذين يعرفهم بنو إسرائيل. ويمكن ملاحظة أن الآية 84 ذكرت إسحاق ويعقوب ولم تذكر معهم إسماعيل ولعل السبب أن الآيات تخاطب بني إسرائيل الذي يعادون بني إسماعيل، لذا تأخر ذكر إسماعيل. أو قد يكون راجع لأساليب القرآن التي لا تخضع لسردنا المؤلف، وهو ما أميل له.

(الآيات: 88-90) تخاطب محمد وتقول إن كانت قريش كفرت فالرسل المذكورين ومن تبعهم آمنوا، وبهم يجب أن يقتدى: ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {88} أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْماً لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ {89} أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ {90}.

(الآيتان: 91-92) أميل إلى أنها تخاطب يهوداً، ممن حضر وقابل الرسول، والذين لا يؤمنون بديانة موسى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ {91} وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ {92}.

والآية 92 أيضاً تؤكد أن محمد رسول لأهل مكة وما حولها مثل الطائف وكذلك بني إسرائيل يثرب. وهذا يعني أن الرسول لم يتصل بأهل الطائف – إن كان قد اتصل بهم أو ذهب إليهم – إلا في هذه المرحلة أو المرحلة السابقة بعد تغير الخطاب من دعوة قريش فقط إلى دعوة كل الناس. وهو ما يخالف ما ورد في كتب التراث أن الرسول ذهب للطائف في بداية بعثته.

(الآية: 93) تؤكد ما كررته سور سابقة من أن قريش تنسب للقرآن ما لم يقل وتسمعه لأناس جاءوا لمقابلة محمد لتصدهم عن الإسلام، وتحذرهم من مصيرهم يوم القيامة: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ {93} وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ {94}.

والآية 93 تصور خروج الروح بصورة حسية وكأن هناك مخلوقات حية (ملائكة) هي من يقوم بنزع الروح من الجسد، وذلك لتقريب الصورة في ذهن وزيادة التأثير. وإلا فالموت يتم بآلية لا يتدخل فيها مخلوق.

(الآيات: 95-105) دعوة عقلانية لقريش: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {95} فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَفْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {96} وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {97} وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ {98} وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِيراً ثُمَّ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {99} وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ {100} بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {101} ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ {102} لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ {103} قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ {104} وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {105}.

الآية 98 نفس واحدة تعني من نفس الموصفات والتركيب، ولا تعني من إنسان واحد. فليس للبشر شخص واحد تناسلوا منه. لأن هذا لا يمكن. إذ لا بد من نفسين (شخصين) ذكر وأنثى للتوالد.

الآية 99 تتحدث عما يشاهد فهناك أنواع من الثمرات. وقوله " مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ " تحدث عنها كثيراً من يريد أن يجد في القرآن معجزات علمية، مع أنها لا تتحدث عن شيء غير معتاد. بل تقول هناك ثمار تتشابه وثمار تختلف.

الآيات 100-101 تتحدث عن قول قريش أن الله بنات هم الملائكة وقول النصارى أن عيسى ابن الله. ولو نزلت السورة في المرحلة الرابعة وقبل توجه الخطاب لبني إسرائيل وتواصلهم مع الرسول لم تذكر الآية أن هناك من يقول أن الله بنين، وهم النصارى لأن السور لم تبدأ بمخاطبتهم إلا من المرحلة الخامسة، حيث تغير الخطاب في السور وبدأت تخاطب قريش وبني إسرائيل.

الآية 103 نفي قاطع أن الله لا يمكن رؤيته، فالمخلوق ليس لديه القدرة على ذلك. سواء في الدنيا أو في الآخرة.

الآية 104 القرآن وحده وسيلة الدعوة وهو البصائر لمن يرغب الحق.

الآية 105 الآية 105 إشارة إلى أن مما تحاول قريش إشاعته بين من يقدم لمكة للقاء الرسول أنه يتلقى ما يتلوا عليهم من غيره (درسه = تعلمه). وهذا الكلام لم تكن قريش تقوله لمحمد عندما كانت الدعوة محصورة في أهل مكة فقط. لأنهم يعرفون أنه لا أحد يعلم محمد. لكن من يأتي من خارج مكة لا يعلم ذلك.

(الآيات: 106-108) تخاطب الرسول والمسلمين: اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ {106} وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ {107} وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {108}.

الرسول – وكل داعية – ليس وكيلا على الناس مسئولاً عن هدايتهم. فقط عليه تبليغهم رسالة ربهم المتمثلة بالقرآن.

وتقول الآية 108 للمسلمين في مكة ألا يبادلوا قريش السب والشتم، لئلا تسب قريش إلهكم ظناً منهم أنه ليس الله. وهذا يشير إلى أن بعض المسلمين يبادلون قريش السب والشتم.

(الآيات: 109-113) تعود للحديث عن مواقف قريش: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ {109} وَنَقَلَبُ أَمْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {110} وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ {111} وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ {112} وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ {113}.

قريش استمرت – كما قرأنا في سور عدة – تؤكد لمحمد أنهم لو رأوا معجزة فسيؤمنوا، والآية تقول لمحمد هل تعلم أنهم لو رأوها سيؤمنوا كما يزعمون. والحقيقة التي قد تغيب عن محمد أنهم لن يؤمنوا حتى لو رأوا الملائكة أو كلمهم الموتى أو أي معجزة أخرى.

الآية 112 تستمر في مخاطبة محمد وتقول له إن ما يسمعه من قريش هو شيء معتاد. فالكاfer يحاول تبرير كفره، بما يقترحه بعضهم لبعض. مثل طلب معجزات أو نزول الملائكة أو كون الرسول بشر ولماذا لم يكن من زعماء القريتين ... ولو تحقق لهم ما يطلبون فسيجدون مبررات غيرها. وقوله: "يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول" لا يعني أن الجن والمشركين يعتقدون الاجتماعات ويقررون ما يقولون. ولكنه يعني أن شياطين الجن يتذكرون فيما بينهم، وشياطين الإنس فيما بينهم.

(الآيات: 114-117) عود لمخاطبة الرسول للرد على قريش: أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ {114} وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {115} وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ {116} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ {117}.

الآية 116 كل من يقول في الدين بغير كلام الله فهو ظن، ومجرد خرص، لا يغني عن الحق.

(الآيات: 118-121) حديث عما يحل ويحرم من المأكَل: فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ {118} وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ {119} وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ {120} وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ

يُذَكِّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ {121}.

وأول مرة يتحدث القرآن عما يحرم من المأكّل ورد في الآيتين 59-60 من سورة يونس.

والآيات هنا تفرض قانوناً يقول: يجب ذكر اسم الله قبل الأكل.

وستعود الآيات: 136، 138-139، 141-146 للحديث عما يحرم من المأكّل بالتفصيل.

(الآيات: 122-124) عقلانية وتصوير حسي: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {122} وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {123} وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ {124}.

تصور الكافر بالميت والمؤمن بالحي الذي له نور يمشي به في الناس. والكافر بمن يعيش في الظلمات التي لا يستطيع الخروج منها. وهو تصوير العيش في دائرة الموروث دون السماح للعقل بالتفكير للتحرر من قيود هذه الدائرة.

الآية 123 تكرر ما ذكرته آيات أخرى مثل الآية 16 في سورة بني إسرائيل: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا}.

الآية 124 تؤكد أن قريش مهما دعيت (بتلاوة آيات القرآن عليها) فلن تؤمن. ومما تبرر به موقفها القول أنها لو أوتيت ما أوتي الرسل لآمنت. إشارة لطلب قريش أن يوحى لهم الله كما أوحى للرسول.

(الآيات: 131-135) عود لمخاطبة الرسول للرد على قريش.

وننوقف قليلاً عند (الآية: 125) التي تقول: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ {125}.

هذه الآية تحدث عنها من يروج للقول أن القرآن يحوي معجزات علمية لم تكتشف إلا في العصر الحديث. وهذا كررنا القول عنه أنه مجرد خيال وظن وإنهم إلا يخرصون. فالقرآن يحدث قريش

بما تعرف ولم يتوجه بالحديث لنا في هذا العصر. والآية ككثير من الآيات تعطي صوراً حسية لزيادة التأثير، وتشبيه الكافر بمن يصعد في السماء، يعني باتجاه السماء يعني إلى الأعلى يعني بالصعود إلى الأعلى سواء بدرج أو مرتفع، حيث سيشعر بضيق تنفس " صَدْرُهُ ضَيِّقًا". ولا علاقة لها بطبقات الجو العليا ونقص أو اختفاء الأوكسجين كما يروجون.

(الآيات: 126-132): وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ {126} لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {127} وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {128} وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ {129} يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرُّوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ {130} ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ {131} وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ {132}.

الآيات تعد من آمن بأن لهم دار السلام (الجنة)، ثم تكرر ما ذكر في سور أخرى من أن النار سيدخلها الكفار من الجن والإنس، مثل قوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {الأعراف 179}

والآيات تؤكد أن الجن لديهم رسل منهم كما أنهم أيضاً مطالبون بالإيمان برسل الإنس، لأنهم يستطيعون سماعهم، كما حدث مع النفر الذين تحدثت عنهم سورة الجن الذين استمعوا لمحمد وآمنوا به. والآيات دليل على أن الدين المطلوب من الإنس هو المطلوب من الجن أيضاً، ودليل على أن الجن يعيشون في محيط الأرض، وهو ما أكدته سور أخرى سبق ومررنا بها منها سورة الجن.

(الآيتان: 133-134) تحمل تهديداً لقريش: وَرَبُّكَ الْعَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ {133} إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَاتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ {134}.

مثال على أسلوب القرآن: الآية تبدأ بمخاطبة محمد "وربك" ثم يتحول المخاطب إلى قريش "يذهبكم".

الآيتان تهدد قريش وتقول لهم أنهم لا يعجزون الله، ولكن الله سيؤجلهم ليوم الحساب. دليل على أن الدنيا ليس فيها عذاب.

(الآية: 135) تأمر محمد بأن يقول لقريش أن يعملوا ما يشاؤون ويتركوا المسلمين يعملون ما يشاؤون (تعایش سلمی) والمصير يتقرر يوم الدين: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {135}.

وهو ما كررته عدة سور منها: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ {39} مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ {40} الزمر.

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ {121} وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ {122} هود
كما أن هذا ما طلبته رسل سابقين من أمهم، مثل شعيب: وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ {93} هود

لكن الكفار دائماً لا يقبلون التعایش السلمي ويصرون على حرب المسلمين أو ردهم عن دينهم.

(الآيات: 136-144) تتحدث عما تحرمه قريش من المأكّل، ومواضيع أخرى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ {136} وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ {137} وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَاءَ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {138} وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّثْقَةٌ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ كَيْمٌ عَلِيمٌ {139} قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ {140} وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُنْشَابِهَا وَغَيْرَ مُنْشَابِهَا كُلُوا مِّنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ {141} وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {142} تَمَانِيَةٌ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبُؤُنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {143} وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ

أَمْ الْأَنْبِيَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْبِيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {144}.

(الآيتان: 137-140) بعض قريش تقتل أولادها لئلا يدخلوا الإسلام.

ثم تتحدث السورة عما حرمه الله من المأكَل: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {145} وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {146}.

الآية 146 تذكر أن الذين هادوا حرم عليهم ما ليس محرماً عادة عقوبة لهم لبغيهم.

والآية 145 تسرد ما يحرم على المسلمين، وعلينا أن نعود في نفس السورة للآية التي تقول: وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ {119}.

وهذه الآية سبقت الآية 145 التي تبين ما يحرم على المسلم من المأكَل. ولو كان أسلوب القرآن مشابه لأساليبنا في الكتابة لذكرنا ما يحرم أولاً (الآية 145) ثم ذكرنا الآية 119. لكن القرآن قال "وقد فصل لكم ما حرم عليكم، على اعتبار أنكم ستتلونه في نفس السورة، ثم ذكره هنا.

ثم تقول السورة: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ {147} سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ {148} قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ {149}.

قول قريش لو شاء الله ما أشركنا منطوق يردده الناس في كل العصور، وهو مجرد تبرير للرفض. وإلا فالله لم يفرض عليهم ولم يجبرهم على الكفر، بل هم من اختار ذلك طواعية، وبناءً على عقائد موروثة لا أساس لها. فهي مجرد خرص وظن، مثل أي عقائد لا تعتمد كلام الله.

ثم تعود السورة للحديث عما حرم، وتسرد الآيات بعض التشريعات: قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ {150} قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {151} وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {152} وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {153}.

الشرك بالله، الإحسان للوالدين، قتل الأولاد، الفواحش، قتل النفس، التلاعب بمال اليتيم، الغش التجاري، قول الحق، الوفاء بالعهد والوعد، التمسك بطريق الله (القرآن). كل من خالف أي من هذه التشريعات فقد ارتكب كبيرة. ومن أصر على كبيرة فهو خالد في النار كما ذكرت سور أخرى.

الإحسان للوالدين بالقول والفعل والعون المادي والمعنوي.

الفاحشة ذنبها واحد عرف بها الناس أو تستر فاعلمها، وهو ما يخالف الموروث الذي يقول أن من يقترب الفواحش في الخفاء أهون من الجهر وأيسر للتوبة. لذا نجد شباب وشباب بلادنا عندما يسافرون لبلاد أخرى ينغمسون في الرذيلة والفسق والخمر والمخدرات، وكأن الله لا وجود له. كنوع من الخفاء، وكأن فعل ذلك في هذه البلاد نوع من الجهر. كما أنه حتى في هذه البلاد فاقتراف المعاصي والفجور في الخفاء ينظر له كأن الله سيغفره.

الغش التجاري بكافة أشكالها مما يتساهل به الناس، فالمنتجات الغذائية يدخل في تركيبها ما يؤذي الصحة، والمنتجات الأخرى كذلك.

قول الحق والوفاء بالعهد والوعد لو كان هناك ترتيب للأمم في هذا المجال لكنا في ذيل القائمة.

هذه التشريعات ومثلها تمثل الإسلام، فدين الله ليس عبادات فقط، بل ليس هناك في دين الإسلام سوى ثلاث عبادات فقط: صلاة وصوم وحج، وبقية التشريعات تهتم بالحياة والكرامة والحقوق. الموروث عثم عليها وأبرز العبادات وكأن من أداها سيغفر له تقصيره فيما سواها. والقرآن يكذب ذلك.

ونعيد تلاوة الآية 153 التي تقول: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {153}.

هذه الآية تنص صراحة وبكل وضوح وجوب التمسك بسبيل الله المستقيم، وتنتهى عن إتباع أي سبيل آخر. فما الذي يمثل سبيل الله ؟

أليس القرآن هو كلام الله المؤكد الثبوت!

أليس كلام الله يمثل سبيله!

ألا يعني هذا أن الآية تقول بوضوح اتبعوا القرآن فقط، ولا تتبعوا أي سبيل آخر!

وتواصل الآيات تأكيد أن القرآن هو ما يجب أن يتبع فهو وحده ما يمثل دين الله مثلما كانت التوراة: ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ {154} وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {155} أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ {156} أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ {157}.

وتقول السورة لقريش أن الملائكة لن تنزل لهم كما يطلبون، ولو نزلت الملائكة وشاهدوها، ولم يؤمنوا فسيهلكون (هذه قاعدة) أكدتها عدة سور: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ {158}.

وتعود السورة لتشدد على ضرورة الالتزام بسبيل الله: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ {159}. وتقول الآية أن من اتبع أي سبيل غير القرآن فلست منهم يا محمد في شيء. أي لا يهملك أمرهم، ولا ينتمون لمملكتك.

وتقول السورة: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {160}.

ترغيب في قوله فله عشر أمثالها. وإلا فالجنة لن يدخلها إلا من آمن وعمل صالحاً. والعمل الصالح يعني التقيد بأوامر الله كلها والبعد عن نواهيه كلها. أي الابتعاد عن الكبائر وفعل كل الأوامر. ولن يكون الحساب على شكل جمع علامات مثل جمع علامات أجوبة المدارس فمن وصل لدرجة النجاح دخل الجنة ومن نقصت درجاته رسب.

وقوله " وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ " لتظهر أن الكفار لن يظلمهم الله لكفرهم ويسجل عليهم معاصي لم يقتروها. وبما أنهم كفار فعقوبة الكفر جهنم. لذا هم سيدخلون جهنم لأنهم كفروا وقد قيل لهم إن من يكفر فمصيره النار، ولم يدخلوا جهنم لأن الله سجل عليهم أكثر مما اقترفوا.

ثم تختتم السورة مخاطبة محمداً، وترد على قريش: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {161} قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {162} لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ {163} قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {164} وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ {165}.

لا تزر وازرة وزر أخرى: لا تسجل صحيفة الأعمال إلا ما يقوم به ويقول الإنسان لنفسه، ولا تسجل ما يقوم به غيره له. وهذا يعني أن كل من يقوم بعبادة أو أعمال خيرية لغيره فلن تسجل له. رفع بعضكم فوق بعض لا تعني في المكانة الإنسانية ولكن في المجتمع. وبما أن الحديث لقريش فمن السهل أن نفهم أنها تشير إلى المجتمع المكي الذي يتكون من أغنياء وموالي ومستضعفين. وهذا التفوق الدنيوي لا يعني شيئاً في الآخرة ولا ينقص من قيمة الإنسان المسلم في الدنيا.

سورة العنكبوت

لقد بدأت قريش تعتدي جسدياً على المسلمين منذ أن تحول الخطاب لكل الناس، حيث دخل بعض مستضعفي مكة الإسلام، مما جراً قريش على الاعتداء عليهم. لكن هذا التعدي وصل لمرحلة خطيرة في هذه المرحلة حيث لجأت قريش إلى التعذيب، وليس فقط التعدي الجسدي. والعنكبوت أول سورة تتحدث عن التعذيب الجسدي، بعدما كانت السور تتحدث عن الأذى الجسدي. لقد عقدت قريش العزم على إجبار المستضعفين الذين دخلوا الإسلام ليرتدوا عنه، أو يموتوا. فقريش لا تحتل أن ينضم عبيدها ومواليها إلى معسكر المسلمين، لأن هذا معناه أن الحيلة العامة في مكة ستصاب بالشلل، أو كأن مكة شملها العصيان المدني التام.

(الآيات: 1-13) تشير إلى ما يتعرض له بعض المسلمين من الافتتان (أي التعذيب من أجل الردة)، وتحثهم على الصبر وتعددهم المغفرة، وتحذر قريش.

(الآيتان: 2-3) تتحدث عن وضع المستضعفين من المسلمين الذين يتعرضون للتعذيب: الم {1} أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ {2} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ {3}

وتحثهم على الصبر، قائلة أن المؤمنين بالرسول السابقين تعرضوا للتعذيب وصبروا. وكأن الآيات تشير إلى أن البعض منهم ارتد " فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ". وستؤكد ذلك آيات أخرى.

(الآية: 4) تنتقل لمخاطبة قريش (الذين يعملون السيئات هنا تعني من يقوم بتعذيب المسلمين). وتتوعدهم بأن الله محيط بما يعملون ولن يعجزوه: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ {4}.

ثم تعود السورة لمخاطبة المستضعفين من المسلمين الذين يتعرضون للتعذيب، وتحثهم على الصبر، وتسمي صبرهم جهاد، وتعددهم بالجزاء الحسن: مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {5} وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ {6} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ {7}.

ثم تنتقل لتشير إلى أن أحد المسلمين في مكة يتلقى العنت من والديه المشركين للردة، وتأمره الآية بالإحسان إليهما – كوالدين – دون طاعتهما في ترك الدين: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {8}.

ثم تعود الآيات لتخاطب الذين تحت التعذيب وتؤكد لهم أن الله سيجزيهم خير الجزاء: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ {9}.

وتظهر الآيات أن بعض الذين يتعرضون للتعذيب قد ارتد: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ {10} وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ {11}.

وهذه أول مرة تتحدث السور عن "منافقين" في مكة، وفي الإسلام. وهم نفر أعلنوا إسلامهم – كما تقول الآيات- ثم أعلنوا ردتهم خوف التعذيب. ولو ظهر الإسلام فسيعلنون أنهم مسلمون.

ويستفاد من الآيات القانون الإلهي التالي: لا تجوز الردة لأي سبب كان. وسيمر بنا استثناء لهذا القانون.

ثم تنتقل السورة لتنتقل لنا بعض تصرفات قريش: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {12} وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ {13}.

كفار قريش الذين يعذبون مستضعفي المؤمنين يقولون لهم إن أنتم كفرتم (ارتددتم) فنعدكم أن نحمل عنكم ذنوبكم يوم القيامة ونعذب بدلاً عنكم. ويمكن القول أن قريش كانت تستخدم التعذيب البدني مصحوباً بالترغيب. تماماً كما يحدث في معتقلات المباحث العربية، تعذيب لا يحتمل وعود خيالية لو استجاب المعتقل لما يريد السجان.

(الآيات: 14-40) عن أمم سابقة تهم قريش وتهم بني إسرائيل.

عن قوم نوح، موجه لقريش: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ {14} فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ {15}.

(الآيات: 16-35) نتحدث عن إبراهيم وقومه ويتبع ذلك إشارة لهلاك قوم لوط كونهم قوم إبراهيم أيضاً. ويتخلل هذا مخاطبة لقريش، ثم عود لتكملة الحديث عن إبراهيم ولوط، كما يلي:

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {16} إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {17}.

ثم تتوجه السورة بالحديث لقريش: وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ {18} أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {19} قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {20} يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ {21} وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ {22} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {23}.

الآية 18 تأكيد أن كل ما على الرسول هو البلاغ (تلاوة القرآن). وبقية الآيات دعوة عقلانية للتفكير.

ثم تعود السورة لتكملة الحديث عن إبراهيم الذي توقف عند الآية 17: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {24} وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ

مَنْ دُونَ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ {25} فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {26} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {27}

الآية: 24 تشاوروا فيما يفعلون بإبراهيم الذي كسر أصنامهم. فاقترح البعض قتله، واقترح آخرون حرقه، لكنهم لم ينفذوا أيًّا منها، لأن إبراهيم استطاع الخروج من قريته. المفسرون فقط هم من قام بلي معاني الآيات وقالوا أن إبراهيم قذف في النار ولم تحرقه (كمعجزة) ولو قذف إبراهيم في النار لأحرقتة ومات، فالنبي لا يتحول إلى مخلوق فوق بشري، ولذلك نجد القرآن يحدثنا أن هناك من رسل وأنبياء الله من قتل: قَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا فَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ {البقرة 87}

الآية: 26 تقول أنه لم يؤمن مع إبراهيم سوى لوط. وهما وحدهما من خرج من القرية إلى بيت الله الحرام، كما تخبرنا آيات سور أخرى. وهذا يعني أن إبراهيم خرج من قريته قبل أن يتزوج، ويؤكد ذلك أنه كان فتى عندما كسر أصنام قومه، كما تقول سورة الأنبياء: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ {الأنبياء 60}

الآية: 27 تذكر أنه رزق بإسحاق ويعقوب، ولم تذكر إسماعيل. لأن المخاطب هنا بني إسرائيل الذين لهم موقف عدائي من إسماعيل الذي كلف بالقيام مع البيت مع والده إبراهيم دون أبيهم إسحاق.

بعد ذلك تنتقل السورة للحديث عن قوم لوط، والملاحظ أن كثيراً من السور التي تتحدث عنهم مباشرة بعد الحديث عن إبراهيم، ذلك أن قوم لوط هم قوم إبراهيم، ولأن المخلوقات الكونية التي أرسلت إلى لوط إخراجها من القرية قبل هلاكها قد مروا بإبراهيم في طريقهم وبشروه بإسحاق:

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ {28} أَيْنَكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ {29} قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ {30} وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ {31} قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ {32} وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا

لُوطاً سَيِّئَ بِهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْتَ مِنَ الْعَابِرِينَ {33} إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ {34} وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {35}.

الآيات تشير إلى أن المخلوقات الكونية قالت أنها ستهلك قوم لوط ومنزلون عليهم العذاب، وكان ما حل بقوم لوط هو عذاب أنزله بهم تلك المخلوقات الكونية. والواقع أن ما حدث هو ثوران بركان قضى على القوم، ودور تلك المخلوقات كان إبلاغ لوط بالخروج ومن آمن قبل وقت كاف لثوران البركان. فهم لم يتسببوا بالبركان بل عرفوا أنه سيثور في لحظة معينة، وأمروا لوط ومن معه بالخروج قبل وقت كاف. وقد خرج لوط بناءً على ذلك في الليل، بينما ثار البركان فجراً، كما تقول سور أخرى: فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَقِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ {65} وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ {66} الحجر.

(الآية: 35) تؤكد أن آثار قرية قوم لوط بقيت ظاهرة حتى بعثة محمد.

ثم تذكر السورة عدداً من الأمم السابقة التي أهلكت، وأشخاص: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ {36} فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ {37} وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ {38} وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ {39} فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {40}.

الرجفة = الزلزال.

آثار مساكن عاد وثمود بقيت حتى بعثة محمد، وكانت قريش تعرفها (38). وثمود من ذرية من نجا مع الرسول من قوم عاد: {وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ {الأعراف 74}

وعاد كانت مساكنهم في الأحقاف: {وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ {الأحقاف 21}

والأحقاف هي تلك المناطق شمال حضرموت، وسبأ المشهورة التي يمر بها طريق التجارة القديم تقع في شمال حضرموت. فلا بد أن مساكن ثمود قريبة من مساكن عاد. وبما أن قريش تعتمد في تجارتها على نقل البهارات واللبن من حضرموت إلى الشام، فلا بد أن طريق التجارة القديم يمر بمساكن عاد وثمود.

الآية: 40 تؤكد أن الأمم السابقة أهلك بكارث طبيعية وليس بخوارق: " فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا". ريح، صيحة (زلزال)، خسف، غرق.

(الآيات: 41-43) إشارة إلى "مسلمة قريش" الذين يوالون أقاربهم من كفار قريش. وأولئك هم من أشارت لهم الآية 113 من سورة هود وهذه الفئة هم من تحدثت عنهم (الآية: 53) من سورة بني إسرائيل وقبلها الآية العاشرة من سورة الشورى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ {41} إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {42} وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ {43}.

والآية تقول أن موالاة الكفار يعني كمن اتخذ بيتا واهياً جدرانها من خيوط العنكبوت.

(الآيات: 44-55) تخاطب الرسول وترد على قريش وتعطي توجيهات للرسول في كيفية تعامله مع بعض أهل الكتاب الذين يقابلهم.

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ {44} ائْتِ مَا أُوجِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ {45} وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا وَالْهَذَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {46} وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ {47} وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ {48} بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ {49} وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ {50} أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {51}

الآيات تظهر أن بعض أهل الكتاب (يثرّب) كانوا يأتون لمكة للقاء الرسول، البعض آمن، والبعض كان يعتمد جدال الرسول لعله يثبت كذب دعوته. والآيات تأمر المسلمين ألا يدخلوا في جدال عنيف مع من يجادل ليتبين له الحق. اما من يجادل ليدحض الحق فيرد عليه بنفس أسلوبه " وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ".

وتقول الآية: وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْهَذَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {46}. والإيمان هنا بما أنزل على أهل الكتاب من الله يعني التوراة وليس كتب اليهود التي كتبوها بأنفسهم.

الآية: 47 تظهر أن بعض أهل الكتاب آمنوا بالرسول.

الآية: 48 تؤكد أن الرسول لا يعرف القراءة " وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ " ولا يعرف الكتابة " وَلَا تَخْطُ بِيَمِينِكَ "

ولو كان الرسول يقرأ أو يكتب لكان مدعاة للريبة والشك من أنه كان يقرأ كتباً وينسخها ثم يحفظها ويتلوها على الناس ويقول هو قرآن يتلقاه من الله " إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ".

وبرغم وضوح المعنى في الآية نجد من يقول أنها تقول أن الرسول يقرأ ويكتب.

وتستمر الآية التي تليها بتأكيد أن القرآن نصوص (آيات) لم تكتب حتى تلك اللحظة وإنما يحفظها المسلمون: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ". وهو ما يدل على أن المسلمون في مكة كانوا يحفظون القرآن، وهذا يعني أن الرسول كان يتلو عليهم كل سورة تنزل ويكررها عليهم حتى يحفظوها.

ثم تتجه بالحديث عن قريش، التي تطلب من الرسول أن يريهم معجزات ليؤمنوا، والقرآن يؤكد أنه لن يكون معجزات: وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ {50}.

ولو كانت قريش جادة في البحث عن الحق لآمنت بمجرد سماع القرآن: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {51}.

وتقول للرسول أن يقول لقريش أن الله شهيد بيني وبينكم، وستخسرون: قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ {52}.

وقريش مستمرة بترديد نفس التهم ونفس التساؤلات والطلبات، ومن ذلك قولهم للرسول إن كان هناك عذاب لنا فلماذا لا يقع علينا الآن، والسورة تقول أن العذاب لا يكون في الدنيا ولكن يؤخر للآخرة: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {53} يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ {54} يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {55}.

(الآيات: 56-60) تعطي الضوء الأخضر للمضطهدين من المسلمين للهجرة وأن الله سيرزقهم، وتعد المؤمنين خيراً: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ {56} كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ {57} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ {58} الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {59} وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {60}.

الآية: 56 أول مرة يذكر القرآن الهجرة إلى المدينة هنا (سبق وذكرت الهجرة للحبشة في الزمر الآية 10 : المرحلة الخامسة).

وتذكرهم الآية: 57 أن كل بشر سيموت سواء تحت التعذيب أو بسبب آخر. وتبشر كل المؤمنين بالجنة، والمؤمن هو من إذا أؤذي في الله صبر (الآية: 58).

الآية: 60 تقول لمؤمني مكة هاجروا (ليثرب) وسيرزقكم الله ويعوضكم عما ستخسرونه من منازل وأثاث ومال في مكة. وهذا فيه إشارة إلى تردد بعض مسلمي قريش حول الهجرة لئلا يخسروا أموالهم.

(الآيات: 61-67) دعوة عقلانية لقريش: وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ {61} اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {62} وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ {63} وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ {64} فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ {65} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ {66} أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ {67}.

الآية: 67 تأكيد حقيقة أن مكة بلد آمن واحترم أمنها من قبل سكان جزيرة العرب.

الآية: 68 تقول: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ {68}. وقد تكررت كثيرا في عدة سور وتشير إلى اختلاق قريش بعض النصوص ونسبتها للقرآن وإسماعها لمن يأتي من خارج مكة لمقابلة محمد كطريقة للصد عن الإسلام.

وتختتم السور بالعودة للحديث عن المضطهدين من المسلمين: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ {69}.

الجهاد في الله يعني الصبر على الأذى في سبيل التمسك بدين الله.

وأثناء هذه الظروف العصيبة حيث يتعرض لمسلمون للاضطهاد، والمستضعفين منهم للتعذيب بالنار، تنزل سورتين قصيرتين هما البروج والمسد تتناول الوضع، وتظهر بعض ما يجري:

سورة البروج

وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ {1} وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ {2} وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ {3} قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ {4} النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ {5} إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ {6} وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ {7} وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ {8} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {9} إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ {10} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ {11} إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ {12} إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ {13} وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ {14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ {15} فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ {16} هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ {17} فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ {18} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ {19} وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ {20} بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ {21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ {22}.

الآيات تتحدث عن قريش كانت تحفر الأخاديد في الأرض (شق مستطيل يملأ بالحطب وتشعل فيها النار) لكي تعذب المستضعفين لإجبارهم على الردة.

وتقول: "وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ"

فقريش ستتضرر كثيراً لو آمنت مواليتها وعبيدها، لن كل الأعمال الخدمية في مكة ستتعطّل، كون من يقوم بها هم أولئك العبيد والموالي، وهذا ما لن تسمح به قريش.

وتحذر السورة من يعذب المسلمين من قريش بنار الحريق – إن لم يتوبوا - : إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ {10}.

وهذا ما ينفي تماماً أن تكون السورة تتحدث عما يسمى بأخدود نجران. والذي سمي بالأخدود بعد عصر الرسول ظناً بأنه الذي تتحدث عنه السورة. وإلا فأخدود نجران لا علاقة له بقريش وليس هناك مناسبة للحديث عنه في ظروف مكية يتعرض فيها المسلمون للحرق. ولا يهم قريش ما حدث في نجران قبل 300 عام حينما قتل مئات أو آلاف من أناس حرقاً بواسطة أعداء لهم في تلك الأصقاع. ويقال أنها لمسيحيين قتلهم يهود .

وبعد أن تحذر الآية قريش تلتفت للمؤمنين وتعدّهم بالجنة والفوز (الآية: 11).

ثم تنوع الآيات (12-16) بشكل مبطن قريش وتعد المؤمنين.

وتذكر بما حصل لفرعون وأمم سابقة وأن الله لا يعجزه أحد (الآيات: 17-20)

وتختتم السورة بالتأكيد على أن القرآن حق وهو نسخة من الأصل المحفوظ بآلية إلهية سمها القرآن هنا "اللوّح المحفوظ". وهو دليل على أن الدعوة لا تكون سوى بالقرآن.

وإذا كانت سورة الأخدود نزلت بحق مجموعة من قريش تعذب المسلمين بالنار فإن سورة المسد نزلت بحق أحد أكثر أولئك القرشيين وبحق زوجته التي كانت من أكثر المتحمسين لجمع الحطب لنيران الأخاديد:

سورة المسد

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ {1} مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ {2} سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ {3} وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ {4} فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ {5} .

السورة تقول تبّت يدا أبي لهب وتباً له بما يقوم به من حفر للأخاديد وتسجير للنيران فيها لتعذيب المسلمين. (التب هو الخسران).

وتتوعد بنار جهنم.

كما تتوعد امرأته نظير حماسها في جمع الحطب. وقوله "في جيدها حبل من مسد) تصوير لما ستلقاه من عذاب في جهنم يتناسب لما تقوم به. فهي تنقل الحطب على جيدها الذي سيتعرض للعذاب، وإلا فإذا دخلت النار فستلقى العذاب كلها.

والتأكيد على أن أبو لهب في النار وهو لازال حياً من باب ما يعرف بالضرورة. فالقرآن يخبرنا مراراً وتكراراً عن حقيقة أن من لا يؤمن بداية سماع لدعوة الحق فلن يؤمن أبداً. لذا فأبو لهب لن يؤمن وسيموت مهما طال به العمر وهو مشرك وسيدخل النار.

ونصل إلى نهاية لقاء اليوم على أمل اللقاء إن شاء الله مع اليوم رقم 11.

والسلام عليكم